

الطَّرِيقُ إِلَى الْبَلَاغَةِ

نجلاء بنت جعفر الكثيري

## المؤهل العلمي

درجة البكالوريوس في اللغة العربية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى والله الحمد.

## الدورات التدريبية

التحليل النقدي للخطاب.

علم اللغة التطبيقي.

علم اللسانيات.

التفكير والمغالطات المنطقية.

مدخل إلى الثقافة والنقد الثقافي.

الدورة التربوية لمعلم اللغة العربية.

توجيهات في التصحيح اللغوي.

تطوير مهارات خريجي الدراسات الشرعية واللغوية.

الثقة بالنفس طريق التميز.

التربية الوجدانية.

## الخبرات الوظيفية

معلمة لغة عربية (نحو، بلاغة، إملاء) ثمان سنوات لفئة الدبلوم.

التصحيح اللغوي (ثلاث سنوات) ومستمر.

## الإنتاج اللغوي

كتاب: التذوق النحوي (إلكتروني).

كتاب: الطريق إلى البلاغة (إلكتروني).

كتاب: أفانين إملائية (إلكتروني).

دورة شرح كتابي التذوق النحوي (صوتي).

برنامج تعلم النحو بالإيجاء العقلي (صوتي).

## نجلاء الكثيري

البريد

jafar.1429@hotmail.com

الحوال

## رسائلي

السعي لاكتشاف العلاقة بين اللغة والفكر والنفس، وإرشاد الناس إليها بأبسر الطرق.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله ذي الفضل والإنعام الذي بلغني هذا المقام، الذي أكتب فيه عن أعزّ علم في الوجود، وأشرف بيان عند الشهود -بلاغة القرآن- العلم الذي أخذ بقلوب أهل البيان، وأذهل بإعجازه جميع الإنس والجان، موصولاً حمدي بصلاتي على النبي العربي الرسول المبين -صلى الله عليه وسلم- الذي كسا بلاغة العرب من حُلل بيانه.



هذا الكتاب هو فضفضة عن قصتي ورحلتي مع البلاغة، دراسة وتدريساً، خرجت من هذه الرحلة بمنهج التدوق، واقتنعت به أكثر من المنهج التقليدي. والتدوق هو منهج واسع، قائم على تلمّس مواطن الجمال في اللغة، وربطها بأثرها على النفس، أو العكس، أثر النفس على اللغة، ما لذي يحدث في أنفسنا إذا قلنا كذا أو سمعنا كذا؟ ما الذي سنقوله إذا كنا نشعر بكذا وكذا... إلخ.

قرأت الكثير والكثير من الكتب في البلاغة التي تتبع منهج التقعيد، ولم تروِ ظمئي في فهم البلاغة، ثمّ كأنّ ممحاة سرت في ليلة على ذاكرتي، ومحت تلك الكتب بقواعدها وشواهداها، لكنها كانت كريمة؛ فأبقت أثراً استفدت منه، ثم قمت بتجربتي الخاصة في اكتشاف سر القرآن وسر اختلافه عن باقي كلام البشر، وعشت الدهشة التي عاشها العرب الأوائل! فهذا الكتاب وهو تجربتي البلاغية الجميلة في دراستها وتدريسها.

جاء هذا الكتاب عفوّ الروح والخاطر، لم أتبع فيه عادة الأبحاث والكتب العلمية، سرت فيه على منهج خططته لنفسي، أحلق فيه بلا قيود التقاليد العلمية، منهجي هو تدوقي الروحي، وتأملاتي الذاتية، فهو تجربة شخصية بحتة، ملأتني حبا للآفاق التي خلقها الله البديع، فأوصلني هذا الحب لفهم آفاق كلام الله تعالى، وإدراك شيئاً من أسرارهِ التي طالما كنت أسأل عنها. وقد قال ربي الكريم: **{وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ}**.

وقد ضمنت الكتاب صوراً من آفاق الطبيعة التي بقربي، فمن بين أزهارها الفواحة، وأطيافها المغردة، وسحبها البيضاء، وسمائها الممطرة، وشمسها المتموجة المختالة بين شروقها وغروبها، من أحضان هذه الطبيعة خرج هذا الكتاب. **الطريق إلى البلاغة**. الذي أطمح أن يكون لك طريقاً مبهجاً.



حقوق النشر محفوظة

## رَحَلْتِي مَعَ الْبَلَاغَةِ

أول مرة أصافح فيها علمَ البلاغة كان في المرحلة الثانوية، ولا أتذكر أنها لفتتني حينها، بعد ذلك شُغفت بالقراءة، خاصة في السيرة النبوية وقصص الذين أسلموا، والذين لم يسلموا، وكنت إذا قرأت مواقف الكفار حين كان ينزل عليهم القرآن تأخذني الدهشة من ردة أفعالهم، وأكثر ما أثارني قصة الوليد بن المغيرة، حين كانت تأخذ قلبه الدهشة والروعة من سماع القرآن، خاصة أن له مكانة عظيمة بين القرشيين في معرفته للغة وفنونها آنذاك؛ فهو أعلم قريش بالشعر وأنواعه وغيره من فنون الكلام، فما الذي وجدته مختلفاً في القرآن؟.

روى الحاكم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما:

أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً! قال: لم؟ قال: يعطوكه فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟! فو الله ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه! قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر (بؤثر يَأْثُرُه عن غيره)، فنزلت: ذرني ومن خلقت وحيداً.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

كنت أسأل نفسي:

### ما الحلاوة وما الطلاوة التي في القرآن؟

ما الذي يميز القرآن عن غيره من الكلام البليغ الرفيع؟ هل مجرد معرفتنا أنه كلام الله كافٍ أن نحكم أنه مؤثر؟ إن كان كذلك فما نحن نقرؤه يومياً ولا نشعر بذلك الذي هزهم بقوة، وقلب أرواحهم وحياتهم رأساً على عقب، حتى أنهم كانوا يجتمعون - وهم مشركون - عند بيت أبي بكر الصديق بنسائهم وجواربهم وعبيدهم يستمعون تلاوته الرقيقة.

لماذا آثرت قريش الحرب على أن تأتي بمثل القرآن أو آية؟

أليست حروفه حروفهم؟ وكلماته كلماتهم؟ وهم حينها لو يؤمنوا بعد أنه كلام الخالق، ولكنهم آمنوا أنه ليس كلام مخلوق، آمنوا أنه كلام مميز، وأن له أثراً عجبياً في النفوس؛ حتى منعوا عبيدهم من السماع للقرآن لعلمهم بقوة تأثيره، فما هو السر بالضبط؟

### ما السرّ في القرآن؟

سأكون معك بعفويتي؛ لأنني أجزم أنها ستلامس شيئاً داخلك، سأحكي لك من الألف إلى ما بعد الياء. في تلك الفترة كانت تتوارد عليّ أمثال هذه القصص، وتزدحم في نفسي الاستفهامات؟ وظل هذا الأمر كامناً في قلبي كمنون النار في الحجر، وإذا أراد الله تعالى أمراً هياً أسبابه. فسخر الله تعالى سنّته معي في التدرّج حتى أبلغ الجواب بنفسي، فكانت سنّته عجيبة حكيمة رحيمة، وله المنّة، وله شكري ما تعاقب الليل والنهار.

كنت في تلك الفترة أحب سماع الإذاعة، وكان يعرض فيها برامج تُعنى بعرض الكتب الجديدة، فكنتُ ألحظ من نفسي أنني بدأت أميل إلى علم البلاغة، وبدأت المصطلحات البلاغية تداعب فكري؛ فيشيرني أن أعرف ما وراءها من جمال، -فإذ بعلم البلاغة والله جميل عميق!-، ولا أبالغ إذا قلت: أنني حين أسمع كلمة (بلاغة القرآن) أشعر أن ذلك الذي كمن في قلبي بدأ يتحرك ويتلقت،

عن محمد بن جبير بن مطعم،  
عن أبيه قال: سمعت النبي -  
صلى الله عليه وسلم- يقرأ في  
المغرب بالطور، فلما بلغ هذه  
الآية: (أم خلقوا من غير شيء  
أم هم الخالقون أم خلقوا  
السموات والأرض بل لا يوقنون  
أم عندهم خزائن ربك أم هم  
المسيطرون) كاد قلبي أن يطير.

وكنت أدعو الله تعالى أن يفتح علي في فهم كتابه، وأن أذوق حلاوة كتابه كما ذاقها أولئك الأوائل، ولا أزعجني وأني وصلت لهذه المرحلة بعمق لكن قد بلغني الله فيها ما جبرني بفضل سببانه.

ذهبت يوما إلى المكتبة ورأيت كتاب جواهر البلاغة، ولم أكن على علم بتاتا بكتب البلاغة ولا بشيء عنها إلا نتفا يسيرة جدا، كنت أسمعها من إذاعة القرآن، اشتريت الكتاب، وعكفت عليه أقرؤه حرفا حرفا، وأكتب عليه وأشير، بل ولخصته أيضا بغية حفظه، وما زال الكتاب عندي وتلخيصه، ومن عجائب القدر أنني قد درّستُ هذا الكتاب بعد سنوات!.

في ذلك الوقت يسر الله لي معلمة في دار لتحفيظ القرآن، متخصصة في اللغة العربية، فكنتُ أسألها دائما عن ماهية البلاغة، وتفصيل هذا العلم وأقسامه ومصطلحاته، وتجيبي لكن لم تكن إجاباتها تروي شغفي، بل كانت تزيدني لهفة؛ ربما لأن أسألتي لم تكن عميقة، أو أنني لم أحسن صياغتها بحكم أنني ما زلت على الشاطئ الذي يكتنف المحيط الهادر. لكنها كانت بداية مهمة وخطوات أوصلتني إلى مرادي.

وقفت كثيرا أمام علمي المعاني والبيان، ولم أفهم الفرق بينهما، فكانت تقول لي: علم المعاني يختص بالأساس، وعلم البيان يختص بالصور، ولم تكن تفصل لي كثيرا، وكنتُ أخشى أن أثقل عليها بأسألتي، فرسمت مخططا يشبه العمارة، وكتبت عند أساسه (علم المعاني) وعند جدرانها (علم البيان) وعند زخرفته وزينته (علم البديع)، وبدأت أفهم قليلا قليلا، غير أن الكتب التي قرأتها آنذاك في البلاغة كانت تهتم بالمصطلحات والتعريفات، وتسرد أمثلة القرآن والشعر مع بعض، فلم يتضح لي الفرق بين بلاغة الآية وبلاغة البيت الشعري، مثلا في باب الاستعارة أو الكناية أو الجناس، يُذكر في الكتب تعريف هذا الفن، ثم ذكر أمثلة عليه من القرآن والشعر وربما الحديث، لكن لا يُذكر السر وراء هذا الأسلوب، فكنتُ أتساءل في نفسي: هنا جناس، هنا طباق، هنا استعارة ... حسنا، ثم ماذا؟! وبقدر ما كانت مصطلحات البلاغة تثيرني إلا أنني أجد عجزا في فهمها بعمق، أين الطلاوة والحلاوة التي أذهلت الوليد بن المغيرة!؟

لم أجد جواباً!، ثم قدّر الله تعالى أن أنشغل بعلم العقيدة وتركت البلاغة، لكن ... لكن ظلّ حبها والشغف بها محبوباً في قلبي، خاصة أن تلك الفترة كان علم البلاغة علماً خافتاً ضوؤه، والتحقّت بمعهد للعلوم الشرعية، وبه مكتبة كبرى، فيها قسم للغة العربية لكن لا أتذكر أنني وجدت كتباً في بلاغة إلا قليلاً، لا يختلف مضمونها عما عهدته، وفي تلك الفترة عكفت على كتب العقيدة وشدني فيها مسألة المجاز.

فالمجاز يُذكر في كتب العقيدة في باب الرد على منكري الصفات ومؤوليهها، ويذكر في كتب أصول الفقه أيضاً لمعرفة الأحكام، فشغفت بالمجاز جداً، وصرت أقرأ عنه كثيراً في كتب العقيدة وأصول الفقه وتجاهلت كتب اللغة، لا لشيء إلا لعدم توفرها، ولخصت الكثير مما قيل في المجاز، وحرك المجاز في داخلي الشغف تجاه اللغة!، خاصة أنه مُثارٌ حوله خلاف كبير، فكنت إذا قرأت في كتب العقيدة أقتنع بقول أهلها وهو عدم وجود المجاز في اللغة أصلاً!، وإذا قرأت في كتب اللغة بفنونها اقتنعت بقول أهلها وهو وجود المجاز في اللغة مطلقاً، وكتب أصول الفقه بينَ بينَ.

تضاربت الأقوال فيه بقوة، فوقعت في حيرة بينهم، كما وقع المجاز!، في داخلي كنت أشعر بحقيقة المجاز، وفي الظاهر كنت أتهيب أن أقول بالمجاز في القرآن بسبب الكثير من الفتاوى، وبعد تفكير طويل لم أجد الجواب الصحيح حينها، هل يوجد مجاز أم لا يوجد؟ ولكنني وجدت السؤال الصحيح وهو: **ما المجاز أصلاً؟**

وبعد طول سنوات انكشف الغمام، وأشرق الشمس، ولأن الله إذا أراد أمراً هياً أسبابه فقد قدر سبحانه في آخر سنة لي في المعهد أن أدرّس البلاغة، قرّرت مادّةً على دفعتي، وكانت دفعتي هي الوحيدة التي درست البلاغة، فقد سبقني دفعتان أو ثلاث، ولحقني غيرها الكثير، لم يدرسوا البلاغة!، فإذا سألتني: لماذا دفعتي الوحيدة هي التي درست البلاغة؟ فالجواب: أراد الله لي أمراً فكان!.

وبعد المعهد ومعرفتي بطريق القراءة والكتب اشتريت كتبا متنوعة عن البلاغة، وقرأت في بلاغة القرآن بشكل خاص لكن.. (كررتها كثيرا وسأكررها)، لكن لم أصل بعد لسر الحلاوة والطلاوة، ولم أياس، بل ظللت أدعو وأدعو الله أن يفتح علي، وأعرف حقيقة بلاغة القرآن، وكيف أتذوق هذه الحلاوة، وكنت حين أقرأ القرآن يقفز إلى ذهني مواقف العرب الذين نزل عليهم القرآن، وتأثرهم به فأجد حماسا بداخلي للوصول إلى ذوقهم، وأنه ليس شيئا مستحيل؛ فهم عرب ونحن عرب، واللغة موجودة بداخلنا وخارجنا.

ثم يشاء الله العليم الحكيم أن يفتح لي الباب الأكبر للولوج إلى عالم البلاغة وسحرها وفنونها وأفنانها، فيسّر الكريم دخولي كلية اللغة العربية (وفي دخولي لها قصة مدهشة أيضا)، فهمت<sup>1</sup> في جمال هذه اللغة وعلومها المتنوعة وخاصة البلاغة، فركزت جهدي الأكبر فيها، ولم يكن في دروس البلاغة شيئا مختلفا عما في الكتب التي قرأتها إلا أنه مع المدارس والاطلاع على كتب أخرى والتواصل مع المختصين فتح آفاقا لا بأس بها، والحق أنني كلما سألت عما يشكل لدي لم أكن أجد الجواب المقنع، وأحمد الله أنهم لم يجيبوني لأن ذلك كان دافعا لي في التفكير والبحث بنفسني.

---

<sup>1</sup> من الهيام.



# الطَّيْبَةُ وَالنَّفْسُ وَالْبَلَاغَةُ

ما علاقة هذه الثلاث ببعض؟  
الإنسان هو جسد وروح وعقل ونفس،  
ولكل جزء غذاؤه الخاص به،  
فغذاء الجسد الطعام والشراب،  
وغذاء العقل العلم والفكر،  
وغذاء النفس ؟؟؟،  
وغذاء الروح علاقتها بربها.  
وكل جزء إذا فقد غذاءه يموت،  
أو تغدّى على فاسد يفسد.

ولأن النفس موضوعنا فهل فكرت يوماً  
ما غذاء النفس التي جعله الله لها؟  
وما علاقة هذا الغذاء بالبلاغة؟

حسناً سأذكر لك تجربتي على سجيتها وعفويتها، ومنها سنعرف الجواب الذي أيقنت -إلى هذه اللحظة- أنه الصواب.



حين شرعت في قراءة كتب البلاغة كان تركيزي -ابتداء- متوجها إلى

مصطلحاتها وتقسيماتها، فقرأت الكثير في ذلك ولخصت وكتبت،

ثم بدأت أنظر لما هو أعمق، ولما هو المقصود بعينه،

للمعاني والأسرار، فقرأت في هذه المرحلة لشيخ البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ولم أفهمه لعمقه،

وقرأت وسمعت شروحات عنه أيضا ولم أفهم! وبتعبير أدق: لم أتذوق، فكنت أتساءل في نفسي: أين

البلاغة؟! وأين جمالها؟! فقدر الله في هذا التوقيت أن أتصل بالطبيعة وألتفت لها، وأغير شيئا من

روتين حياتي، نظرت إلى الطبيعة وكأنها كائن حي، يحدثني وأحدثه، بدأت أنتبه إلى جمال السماء في

ليلها ونهارها، ويشيرني لمعان النجوم وتلألئها حين يسدل الليل ثوبه، وتأسرني إطلالة الشمس حين

تسفر عن وجهها الساطع، وتأخذ بليبي تلك العصافير الرقيقة بتغاريدها اللطيفة، لا أكاد أمل من تأمل

حركتها وسماع نغمتها... اتصلت بالطبيعة بقوة نفسية، وخلوت معها لساعات، أتأمل، أسبح، أشكر،

أدندن مع نفسي.

حين وصلت نفسي لهذه المرحلة من الاتصال بالطبيعة المفعمة ببلاغة الجمال، بدأت أنتبه للكلام

المفعم بالبلاغة والبيان.

### كيف حصل الاتصال بين هذه الثلاث (النفس الطبيعة البلاغة)؟

سألت نفسي لماذا حين اتصلت بجمال الطبيعة صرت أدرك

جمال اللغة أشعر به؟ ما الذي حدث بالضبط؟

عدت بتأملي إلى حال العرب قبل الإسلام، بلغائهم وعامتهم،

وجدت أنهم أصحاب طبيعة غضة فاتنة، لا يحجبهم عن جمال

الطبيعة حاجب، لا مادي ولا معنوي، وليس صحيحا أن العرب

في الجزيرة أصحاب صحراء قاحلة! نعم الصحراء موجودة

والأرض الخضراء موجودة، والبحار والأنهار والمرايع والحيوانات

بأنواعها، فقد كانت جزيرة العرب مروجاً خضراء يشهد لهذا شعرهم.



هؤلاء العرب امتزجت نفوسهم الصافية بالطبيعة الصافية، فأثرت الثانية في الأولى فيها تأثيراً بيّنا ظهر أكثر ما يكون في بلاغتها وبيانها، شعرا ونثرا؛ لأن الكلام البليغ لا يخرج إلا من نفس صافية، والنفس لا تصفو إلا إذا رجعت إلى فطرتها وفطرة ما حولها.

بإمكانك أن تجرب فترة من الزمن، تتصل فيها بالطبيعة وتستشعر جمالها، حتى لو تكتفي بالنظر إلى السماء أو البحر أو الخضرة، ثم عد واقراً أي كلام في الأدب أو النفس أو الفكر ستجد تغيراً واضحاً في مستوى إدراكك. لأن التأمل يغسل لوثات النفس.

بلغ العرب في البلاغة مبلغاً عظيماً، تشهد على ذلك أسواقهم ودواوينهم، وصاروا هم رواد الكلمة وملوك البيان، وهذا معروف. فلما نزل القرآن وسرّ إعجازه هو في بلاغته وبيانه نزل على نفوس مهيأة لفهمه، وقلوب تليق باستقباله، وآذان تعي بيانه؛ لذا كان ما كان من مواقفهم حول القرآن.

فأول خطوة صحيحة في طريق البلاغة هو تأمل جمال الطبيعة، لا بد أن تتصل النفس الإنسانية بالطبيعة الربانية؛ فالجمال الطبيعي هو غذاء النفس، وحين تُحرّم غذاؤها فإن النفس تتجمد، تتصلب، تتصحر، تتحجر، تذوي وتموت فيها أجمل المعاني.



لابد أن يعود الإنسان إلى الطبيعة، ويعيد بناء علاقته معها، لا من أجل البلاغة فحسب بل من أجل نفسه أولاً؛ فالكون بما فيه صفحات ربانية، أراد الباري منا أن نقرأ هذه الصفحات؛ لنرى عجائب قدرته، وآثار رحمته، وجمال صنعته، وكل هذا سينعكس على نفسك وروحك وعقلك وجسدك، ستمتلى جمالا ثم تفيض منه، وسيُرى هذا الأثر في منطقتك؛ لأن الكلمة متصلة بالطبيعة، والنفس هي الرسول بينهما.

قيل لكثيرٍ الشاعر: يا أبا صخرٍ كيف تصنع إذا عسر عليك قول الشعر؟ قال: أطوف في الرباع المخلية والرياض المعشبة، فيسهل علي أرسنه، ويسرع إلى أحسنه.

ومن أحكم قراءة صفحات الكون سيحكم قراءة صفحات البيان في القرآن، فهما كتابان متصلان ببعضهما، فالجمال متصل أبدا بالجمال، ويحتاج إلى نفس تشبهه، والإحساس بالجمال جوهر إنسانية الإنسان، وإذا مات الجوهر فماذا بقي؟ وكما قيل: شبيه الشيء منجذب إليه.

بعد أن وصلت إلى هذه النتيجة -بفضل الله تعالى- وجدت أن الأستاذ أحمد الزيات في كتابه (الدفاع عن البلاغة) أشار إلى علاقة هذه الثلاث وقال: "لابد لطالب البلاغة من إدراك: اللغة/ الطبيعة/ النفس". وإن لم يربط بينها كما ربطت.



## التَّدْوُقُ

## البيانيُّ

بعد التهيؤ النفسي في تذوق الجمال الكوني، وبعد سمو الذوق الجمالي في الطبع الإنساني، يكون بإمكان هذه النفس تذوق الجمال البياني؛ فالكلمة الجميلة ابنة الطبيعة الجميلة، كما أن الكلمة الجافة وليدة الطبيعة الجافة، وهذا يدركه الإنسان من نفسه ولا يحتاج إلى إعمال فكر.

وبناء التذوق البياني يبدأ من حيث بدأ البيان، من حيث أشرق الشعر وكان، من الشعر الجاهلي، قبل الإسلام، ولكني أفضل أن يبدأ المتذوق بقراءة البيان الرفيع في عصره، ثم ينتقل تدريجياً إلى العصر الأول، حتى تتكون لديه ملكة لغوية غنية بالمفردات والأساليب، والأمر فيه سعة، فيمكنك أن تضع الخطة التي تناسبك، لا أنصحك أن تتقيد بأي حدود يضعها غيرك في مجال التذوق.

واعلم -أيها الناظر في كتابي- أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم.

ابن الأثير/ المثل السائر

هذا المنهج العلمي التذوقي هو أصح المناهج وأقومها في دراسة البلاغة؛ فإذا تخلف الذوق كانت (البلاغة) أصولاً علمية شاحبة.

العلامة محمد أبو موسى / البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية.

ولكل لغة من اللغات المتمدنة عبقرية تستكن في طرق الأداء وتنوع الصور وتلاؤم الألفاظ، وهذه العبقرية لا تدرك إلا بالذوق، والذوق لا يُعلم، وإنما يُكتسب بمخالطة الصفوة المختارة من رجال الأدب، ومطالعة الروائع العالمية لعباقرة الفن.  
أحمد الزيات/ دفاع عن البلاغة.

وتقديرا لدور الذات في العملية النقدية كان عبد القاهر يرجع بالقارئ إلى ذات نفسه يطلب منه أن يكتشف الفرق في الأثر النفسي الذي يجده قبل قراءة البيت من الشعر وبعد قراءته، وهو ما يمكن أن نسميه بالاستبطان الذاتي أو النفسي في تقدير العمل الفني، وهو منهج قائم على الإحساس والذوق.  
محمود شاكر/ القاعدة والذوق في بلاغة السكاك

عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز قرر أن العمدة في إدراك البلاغة هو الذوق والإحساس الروحاني، وأنه لا بد من تهذيبه بالوقوف على مواطن الجمال في الأدب، ولن يفهم الأدب ويهتز له من عدم الذوق وفقد الإحساس والشعور مهما أوتي من علم البلاغة وقواعدها.  
د. أحمد مطلوب/ أساليب بلاغية

إذن الرجوع للأدب هو الخطوة الثانية في بناء التذوق بعد الاتصال بالطبيعة.

## لماذا نحتاج أن نتذوق كلام البشر؟

حتى نتقل من الأدنى إلى الأعلى، وهذا هو الواقع، حين نزل القرآن كان العرب في قمة البلاغة والبيان وصناعة الكلمة والإحساس بها، فنحن نريد أن نصل إلى شيء من حالهم حتى نرقى إلى القرآن وهذه هي ثمرة الامتلاء من كتب الأدب الأصيل، يقول محمد أبو موسى: "وكلما ازددت تمكنا من صنعة البيان ازددت إدراكا للأسرار المنطوي عليها هذا الكلام، وازددت \_كما يقول الشيخ عبد الله دراز\_ هضمًا لنفسك، وخضوعًا يغلبك أمام أسلوب القرآن. قال \_رحمه الله\_:" هذا يبدو لك عجيبا أن يزداد شعور المرء بعجزه عن الصنعة بقدر ما تتكامل فيه قوته، ويتسع بها علمه، ولكن لا عجب فتلك سنة الله في آياته التي يصنعها بيديه، لا يزيد العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعانا لعظمتها وثقة بالعجز عنها، ولا كذلك صناعة الخلق، فإن فضل العلم بها يمكنك منها، ويفتح لك الطريق للزيادة عليها، ومن هنا كانت سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسى وهارون"<sup>2</sup>.

فهو يقصد أنك كلما عرفت أسرار الكلام البشري عرفت أسرار الكلام الإلهي؛ لأن الفرق سيبدو واضحا جليا، وعندما ستشعر بالعجز أمام كلام الله لأنك تعرف يقينا -بسبب خبرتك- أنه لا يمكن تقليد كلام الله تعالى.

س/ معلوم أن التذوق حاسة يتفاوت فيها الناس، فكيف نجعلها أساسا لإدراك البلاغة؟ ومعلوم أن البلاغة ونظم الكلام له قواعد وأسس فكيف نجتمع بينهما؟

ج/ التذوق الصحيح سيقودك إلى معرفة القواعد، وحينها تُبنى القواعد لديك فطريا بدل أن تكون صناعية تقليدية، فأنت كلما تغذيت من البيان الصحيح قوي فيك الحس الذوقي للكلمة البليغة، فإذا انتقلت بعدها لدراسة القواعد سهل عليك فهمها لأنها مبنية أصلا في داخلك.

مثال: يدرس الطالب سواء في اللغة أو الشريعة قضية المجاز، وهو خَلُوٌ من الغذاء البياني، فيقع في تشتت في فهم المجاز، ويصبح المجاز وأبوابه مجرد مصطلحات لا طعم لها ولا لون، وتجد أنه يقلد

<sup>2</sup> الإعجاز البلاغي

في نفي المجاز وهو لم يعرفه أصلاً ولم يتذوقه!، ولو أنه امتلأ من البيان الصحيح والأدب الرفيع ثم دخل باب المجاز لفهمه وعاش حلاوته وأسراره. وأنا أقول هذا عن تجربة.





لا يخفى على الجميع أن العرب قبل الإسلام لديهم أسواقهم وأنديتهم الأدبية، فلما أقبل الإسلام بمعجزته الخالدة كان بديها أن ينشغلوا بهذا البيان العالي عن أشعراهم وأدبهم، وكان بديها أن تنطفئ أنوار هذه الأندية، هذا أمر منطقي لا علاقة له بضعف الشعر أو كراهة الأدب؛ إذ بقي الشعر يُروى لكنه أخذ منحى آخر يناسب زمنه وأحداث الزمن، وبقي العرب مع الشعر هم العرب، فقد سمع

الرسول صلى الله عليه وسلم الأشعار واستنشدتها وطلبها وقالها، وعلى ذلك الصحابة، فالشعر ممزوج في حياة العربي، والشعر والأدب -عموما- من أعمدة حياة العربي، ولما استقر حال المسلمين مع القرآن عاد الشعر في الظهور على مسرح الحياة، وعاد بقوة، وكانت علاقة الناس -بكافة اختلافاتهم العلمية والعلمية والاجتماعية- مع الشعر علاقة طبيعية ودية، واستمر هذا الأمر على سجيته، حتى حدثت فجوة بين العرب ولغتهم، خاصة عند بعض المنشغلين بالعلم الشرعي، زهدوا في الأدب وزهدوا فيه وفي قراءته وتعلمه وسماعه، وظهر هذا في زمن إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني، وظهر في زمننا أيضا، وأنا لم أتبع المسألة تاريخيا بالتفصيل، لكنها ظاهرة واضحة عشتها في مرحلة طلب العلم، حيث كنت أسمع وأقرأ للكثير يزهدون ويحذرون من قراءة كتب الأدب تارة باسم العقيدة وتارة باسم الأخلاق!.

حيث زعم هؤلاء أن:

- قراءة الشعر والقصص تضييع للوقت، وينبغي صرف الوقت فيما هو أنفع!.
- مضامين الأدب يغلب عليها الدعوة للردية!.
- صعوبة الشعر الجاهلي وما بعده!.
- الانشغال بالشعر يزهده في تعلم القرآن!.
- الكثير من الأشعار تخالف العقيدة!.
- بعض الأدباء منحرفون عقديا!.

وظهر في هؤلاء المزهدين في الأدب -الذين في زمننا- الضعف الشديد في علوم اللغة، في إملائها ونحوها وبلاغتها، وبلغ ببعضهم أنه يستنكر بعض العبارات التي فيها كناية أو مجاز لأنه لم يفهمها! فهوا واقف على ظاهر الألفاظ، وليس له علم بالسياق ولا الحال ولا أساليب اللغة.

وهذه دعاوى دخيلة على الفطرة الإنسانية، وهل الإنسان يسمو إلا بالأدب، ويتهدب إلا بالأدب! كيف وكتب السنة والتاريخ مليئة بأحاديث وآثار صحيحة عن سماع الرسول الشعر واتخاذ الشعراء، وحرص الصحابة على الشعر رواية وإنشادا وتعلّما، لما للشعر من أهمية. وهذه المواقف لا تكاد تذكر عند هؤلاء المحاربين للشعر والأدب.

- فالشعر يهذب النفس؛ لما فيه من حكم.
- يرقق النفس من جفاف الحياة؛ لما فيه من عاطفة صادقة.
- يعطي العقل قوة؛ لأنه يعتمد على الإشارة والاختصار.
- يقوي ملكة البيان؛ لما فيه من ثروة لغوية ضخمة، سواء في المفردات، أو التراكيب، أو الصور، أو الخيال.

- هو الأساس في فهم اللغة العربية بجميع فنونها.
- ومنه يُرتقى في فهم البيان الأعلى، القرآن الكريم.
- والشعر كثير منه فيه ترويح للنفس، وتنشيط لها.

فالعودة إلى سيرة الرسول وصحبه يطفئ هذه الفكرة المظلمة، وأشهر ما في سيرته سماعه للشعر الجاهلي، واستنشاده من حفظته، وشعراؤه رضي الله عنهم، وزوجته الحبيبة عائشة من أعلم الناس بالشعر، والخلفاء الراشدون وعلاقتهم بالشعر، وحبر الأمة ابن عباس كان يعقد مجالس خاصة بالشعر.

عَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:  
رَدِفْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
يَوْمًا فَقَالَ:

هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمِّيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ  
شَيْئًا؟

قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: هَيْه، فَأَنْشَدْتَهُ بَيْتًا،

فَقَالَ: هَيْه، ثُمَّ أَنْشَدْتَهُ بَيْتًا،

فَقَالَ: هَيْه، حَتَّى أَنْشَدْتَهُ مِئَةَ بَيْتٍ.

قَالَ: إِنْ كَادَ لِيُسَلِمَ.

وَفِي رَوَايَةٍ: فَلَقَدْ كَادَ يُسَلِمُ فِي شِعْرِهِ.

وقد ذكر إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني في كتابه الفريد في علم البلاغة (دلائل الإعجاز) فصلا كاملا عن الكلام في الشعر، والرد على الشبهات التي تزهد فيه، لا بد أن يرجع إليها كل من يريد أن يفهم هذه المسألة؛ فالشعر ديوان العرب منذ أن خرجوا إلى ديوان الحياة. وهذا قبس:

• ومن ذلك حديث كعب بن زهير . روى أن كعباً وأخاه بجيراً خرجا إلى رسول الله ﷺ حتى بلغا أبرق العزاف ، فقال كعب لبجير : ألق هذا الرجل وأنا مقيم ههنا ، فانظر ما يقول . وقدم بجير على رسول الله ﷺ ، فعرض عليه الإسلام فأسلم ، وبلغ ذلك كعباً ، فقال في ذلك شعراً ، فأهدر النبي ﷺ دمه ، فكتب إليه بجير يأمره أن يسلم ويقبل إلى النبي ﷺ ويقول : إن من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قبل منه رسول الله ﷺ ، وأسقط ما كان قبل ذلك قال : فقدم كعبٌ وأنشد النبي ﷺ قصيدته المعروفة :

بَأْتَتْ سَعَادُ قَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ مُتَمِّمٌ إِزْرَهَا ، لَمْ يُفَدِّ ، مَعْلُولٌ  
وَمَا سَعَادُ غَدَاةَ النَّبِيِّ إِذْ رَحَلَتْ إِلَّا أَعْرَضُ الْبَطْرِفِ مَكْحُولٌ  
تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولٌ

سَخَّ السَّقَاةُ عَلَيْهَا مَاءَ مَخْنِيَةٍ مِنْ مَاءِ أَنْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ نَسْتُولُ (١)  
وَتَلَمَّهَا خَلَّةٌ لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ تَوَعُّودَهَا ، أَوْ لَوْ أَنَّ النَّصْحَ مَقْبُولُ (٢)

حتى أتى على آخرها ، فلما بلغ مدح رسول الله ﷺ :

إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيِّفٌ يُسْتَصْنَاءُ بِهِ مَهَنْدٌ مِنْ سَيْوُفِ اللَّهِ مَسْئُولُ (٣)  
فِي فَيْتَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ بِيَطْنَ مَكَّةَ ، لَمَّا أَسْلَمُوا : زُولُوا (٤)  
زَالُوا ، فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، وَلَا مِيلٌ مَعَارِيزِلُ  
/ لَا يَنْقَعُ الطَّغْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ وَمَا بِهِمْ عَنْ جِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ  
/ شَمُّ الْعَرَابِيِّينَ أَبْطَالٌ ، لِيُوسُهُمْ ، مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا ، سَرَابِيلُ

أشار رسول الله ﷺ إلى الجَلْقِ أَنْ أَسْمَعُوا . قال : وكان رسول الله ﷺ يكون من أصحابه مكان المائدة من القوم ، يتحلّقون حلقةً دون حلقة ، فابتغت إلى هؤلاء وإلى هؤلاء . (٥)

والأخبار فيما يشبه هذا كثيرة ، والأثر به مستفيض .

...

(١) وفي نسخة : « سح السقاة عليها » ، أما الرواية المشهورة في البيت فهي :

شَحَّتْ يَدِي سَيْبِمْ مِنْ مَاءِ مَخْنِيَةٍ صَافٍ بِأَنْطَحِ ، أَضْحَى وَهُوَ مَسْئُولُ

(٢) في المطبوعة : « أكرم بها حلة » .

(٣) وفي رواية « لنور » بدل « لسيف » .

(٤) في هامش المخطوطة : « يعني المحررة مع النبي ﷺ من مكة إلى المدينة » .

(٥) خبر كعب بن زهير مشهور ، وقصيدته مشروحة ، وهي في ديوان كعب بن زهير ، وانظر

طبقات فحول الشعراء رقم : ١١٧ ، ١١٨

ومن أعظم ما قرره الإمام عبد القاهر الجرجاني أن الصادَّ عن الشعر صادٌّ عن العقيدة.

لك أن تتصور هذا المعنى العميق !.

وقفت على كتاب (قطرات الندى معالم الطريق إلى فقه الشعر)، لـ محمود توفيق محمد،  
وأعجبتني مقدمته، سأنقل لك أجزاء منها:

وليس حُسْنُ قراءة شعر العربية إلا إحسانا في الولوج إلى إحسان الإيمان بالله عز وجل.  
ذلك أن الإحسان في قراءة شعر العربية إنما هو المهيع إلى حسن تدبر القرآن الكريم،  
الذي هو مفتاح العلم بخطاب الله -عز وجل- عباده وحيًا إلى خاتم أنبيائه وسيد رسله  
وخلقه المصطفى محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، شعر العربية هو  
علمهم الذي ليس لهم قبل الإسلام علم أصح منه، كما كان يقول "أمير المؤمنين: عمر بن  
الخطاب" -رضي الله عنه- وهو ديوان أمجادهم وحصن مناقبهم، وهو مفتاح من مفاتيح  
فقه بيان الوحي قرآنا وسنة. كان الشافعي راوية شعر وعالم بيان من قبل أن يكون فقيه  
الأمة، ومؤسس أنجب وأكرم علومها: علم أصول فقه بيان الوحي، ولولا أنه كان البحر في  
رواية الشعر وتذوقه وفقهه ما كان فيما أرى بالمقتدر على أن يؤسس لنا منهاجًا ملحَّبًا إلى  
إتقان فقه معاني الكتاب والسنة .

فلا يكُ أمرُك من الشعر ورعا أعجميا، بل اعتناء به من أنه الباب الرئيس إلى أن تضع  
قدمك على فاتحة السبيل إلى فقه بيان الوحي.

كانت الصديقة راوية الشعر مثلما كانت راوية سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت  
علاقتها بالشعر علاقة رواية ودراية، فالقلب الذي وعى السنة المطهرة وعى شيئا من شعر  
العربية غير قليل، واللسان الذي اذَّن ببيان النبوة هو الذي تَغَنَّى بغناء المجد: شعر العربية  
المجيد.

# البَيَانُ الْقُرْآنِيُّ

## ما الفرق بين بلاغة كلام الخالق وبلاغة كلام المخلوق؟

قرأت في كتب إعجاز القرآن القديمة والحديثة، كلها تكاد تجمع أن السر في التأثر بالقرآن هو بلاغته، ثم يذكرون نماذج من بلاغته وحسب، لكن لا يذكرون السر العميق، فهم يذكرون أن آية كذا بليغة بسبب تقدم المفعول على الفاعل أو حذف كذا أو... إلخ، وهذه الصورة البلاغية موجودة أيضا في كلام البشر!، فما الفرق إذن؟! كنت أسأل: شعر العرب بليغ، وكلام الله بليغ، والصور البلاغية التي تذكر في القرآن يوجد مثلها في الشعر إذن أين الفرق؟!!

والأساليب البيانية التي في القرآن مثل التقديم والتأخير، والذكر والحذف، وألوان البديع... إلخ كلها يوجد مثلها في الشعر إذن أين الفرق؟!!

لماذا انبهر الوليد بن المغيرة وتغيرت أحواله حين سمع القرآن، وهو من هو في علمه بلغة العرب وشعرها؟ ما الذي وجده الوليد مختلفا في كلام الله؟

هل بسبب ما ذكر فيه من أمور غيبية؟

أم ما فيه من وصف الجنة والنار؟

لماذا كاد أن يطير قلب عقبه بن معيط حين سمع سورة الطور؟

هل بسبب ما ذكر فيها من أهوال وتهديد؟  
لماذا وضع بعضهم القطن في أذنيه حتى لا يسمع القرآن؟  
لماذا أخذ القرآن من قلوبهم كل ما أخذ؟  
كل هذا التأثير وهم في المرحلة المكية، أي لم يسمعوا كل القرآن بعدًا!  
وتأثير القرآن كان على الجميع، كبيرهم وصغيرهم، نساءهم ورجالهم، حتى تعبيراتهم عن تأثير القرآن  
تشبه بعضا، فالتأثير الأول الذي أدهشهم تأثير نفسي من جانب الشعور، وليس من جانب المنطق،  
المنطق يأتي لاحقا في التأثير.  
لا أبالغ حين أقول: سنوات وأنا أبحث عن جواب، وكان الله تعالى بلطفه يأخذني خطوة خطوة لأدرك  
الجواب بنفسني.

كيف وصلت إلى الفرق بين كلام  
الخالق وكلام المخلوق؟

تجربتي في اكتشاف  
سر القرآن

في ليلة قررت أن أقارن بين القرآن والشعر، وسأعتبر نفسي في تلك الحقيبة، وكأني لا أعرف أن القرآن كلام الله، وأريد أن أجرب كيف يمكن أن يكون الشعور، اخترت هذه الأبيات في معلقة امرئ القيس:

معلقة امرئ القيس  
وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سَدْوَلَهُ  
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ  
عَلَيَّ بِأَسْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي  
وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكُلِّكَلٍ  
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي  
بِصُحِّحِ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ  
فَمَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجُومَهُ  
بِأَمْرَاسِ كِتَانٍ إِلَى صَمِّ جَنْدَلٍ  
وَقَرْبَةِ أَقْرَامٍ جَعَلْتُ عِصَامَهَا  
عَلَى كَاهِلٍ مِنِّي ذُلُولٍ مُرَحَّلٍ

وأخذ مني التأمل وقتاً طويلاً، وكأن نفس الشاعر تجلّت لي بما يعترك بداخله من مشاعر، سبحت مع هذا الشعور، ثم انعطفت أتدبر الفاتحة وبعض السور في جزء عم، خاصة سورة الإخلاص، وأنا أقرأ الآيات فجأة أصابني رعدة هزت كياني، وقشعريرة لم أستطع التحكم بها، غزاني شعور قوي من الدهشة، حتى أنني قمت من فراشي ووضعت يدي على رأسي لشدة ما أشعر، وكأن أمراً عظيماً انكشف لي، وأقسم بالله أنني لم أجد هذا الذي سأحكيه في كتاب، ولم أنقله إلا من تجربتي الخاصة.

عدّلت جلستي وأخذت أنفاسي وأنا لا أصدق المعاني التي تجلت لي، ولم أكن أستطيع التعبير عنها حينها، بدأت أعيد قراءتي لمعلقة امرئ القيس، وبدأت المعاني تنكشف لي رويدا رويدا، وكأني أرى شخصية امرئ القيس تلوح في شعره، رأيت امرئ القيس المتألم الحزين، صاحب النفس الشاكية الباكية، نفس تنظر للماضي فتتحسر، وتنظر للمستقبل فتتوجس، وتارة أرى امرئ القيس مغرورا بنفسه وبمُلك أبيه وكأن لا أحد سواه، وتارة أجده شابا يروي قصص غرامه وبطولاته، وتارة شابا تأسره الأحلام والأمنيات، وتارة رجلا كل همه صيد البقر ووصفها ووصف البيداء التي يعيش فيها، المهم أنني وجدت في الشعر النفس الإنسانية بمختلف تقلباتها وتغييراتها، النفس الإنسانية التي تبكي وتفرح وتضحك وتتشاءم وتتجبر وتنكسر.

ثم عدت إلى كلام الله -جل جلاله- وجدت فيه عظمة مطلقة، وقوة مطلقة، وغنى مطلق، ورحمة مطلقة، وجدت فيه علوًا ذاتيا، وجدت قوة مدبرة لكل ما هو دونها، وجدت مجدا لا حد له، وشعرت أن المتكلم بهذا الكلام قد بدت صفاته من خلال كلامه، وجدت أن نفسي تضاءلت جدا أمام هذه المعاني، حتى أن جسمي لم يعد يقوى على شيء، وعقلي توقف عن الغوص أكثر، كأن الذي انكشف لي أكبر مما أحتمله، شعرت بتعب شديد أرغمني على النوم.

حتى هنا ليس لدي ما أقوله إلا (وإنَّهُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ) لك أن تتخيل أيها القارئ عندما وصلت لهذا السر بنفسي، أقسم أنني سجدت شكرا لله تعالى، وبكيت بكاء شديدا، وكأني أشهد نزول القرآن لأول مرة، هذا الشعور لا يوزن بجواهر الدنيا؛ لطالما كنت أسأل: ما الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق؟ ما السر في بلاغة القرآن؟ ما سر دهشة العرب؟ والحمد لله الذي وفقني أن أجد الجواب بنفسي، وأعيش تجربة فريدة، يشرفني أن أروبها دائما وأبدا.

إن النفس البشرية لا تستطيع إخراج كلام القرآن، وليس السبب في مسألة التقديم والتأخير والمجاز والتشبيه... وإنما لأن الكلام مربوط بصفات قائله، والمخلوق صفاته مخلوقة، فمهما بلغ من الفصاحة وتكلم، فكلامه يحمل صفاته البشرية التي لا يستطيع الانفكاك عنها، لذا عندما نقرأ تجارب من يقلدون القرآن نشعر أنه كلام سامح مضحك، لا معنى له.

ولو قرأ القرآن شخص لا يعلم أنه كلام الله سيدرك فوراً أن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر من بشر. حتى في ترجمات القرآن تظل صفات المتكلم بادية وظاهرة للقارئ، رغم تغير تركيب الأساليب؛ لأن المعاني التي فيه ليست معاني إنسانية بشرية، بل معاني علوية إلهية، يشعر القارئ أن هذا الكلام صادر من متكلم متحكم مدبر بيده كل شيء، حتى الملحد يشعر بذلك.

حين تدرك السر في الفرق بين بلاغة القرآن وبلاغة غيره سيختلف التطبيق البلاغي على القرآن؛ ففي التطبيقات البلاغية على النصوص الأدبية يقوم الأديب أو الناقد بالبحث بين الكلمات وما وراءها كي يستنبط دفائن النفس البشرية التي كتبت هذا النص، وغالبا تجد أن هذا النص يخرج من مشاعر خوف، أو رجاء، أو قلق، أو فخر أو مدح أو استعطاف... وكلها مشاعر تدل على النقص، ولا غرابة فهذا هو الإنسان.

في القرآن لا يمكن أن تجد هذا لأنه كلام الكامل في صفاته، في القرآن نحن نعرف المعاني غرفا ولا تنضب، في القرآن حين تعيش بلاغته يسمو بنفسك، يغذيك، يهديك، يحتويك،  
مثلا: الحذف والذكر ومن الأساليب البلاغية، قد يحذف الأديب شيئا للخوف من ذكره، أو يحذف دون قصد، إنما هكذا عفوا، وهذا العفو له دلالة نفسية، وهي التي نبحت عنها في البلاغة، وهي التي نقول عنها: بلاغة الحذف. أما في القرآن فدلالات الحذف تختلف عن الحذف عند البشر، وهذا الذي ينبغي أن يفتن له في الدراسات البلاغية والتطبيقات. نعم يوجد اشتراك في أسباب الحذف، لكن مهما يكن لا بد من اعتبار أن كلام الخالق يختلف عن كلام المخلوق مهما بلغت بلاغته.  
يكتب الشاعر قصيدته وربما نقحها سنة كاملة - كما في القصائد الحولية- ومع ذلك لا يستطيع الشاعر أن يعلل لكل كلمة جاءت في موقعها، حتما ستكون القصيدة في غالبها جاءت عفو الخاطر، وخاطره بليغ لا شك. لكن في القرآن الأمر مختلف تماما، فكل حرف جاء لقصد ومعنى، وجاء في مكانه المناسب، في الآية المناسبة، في السورة المناسبة، في الترتيب المناسب، لأنه من تنزيل حكيم حميد.

هذا يدلّك على أن كل كلام يُفهم على أساس صفات المتكلم، فكلام الملك من الناس يُفهم على أساس صفات الملوك، وكلام التاجر يُفهم على أساس صفات التجار، وهكذا... فكل أهل علمٍ وفنٍ يُفهم كلامهم على أساس صفاتهم.

إذن كلام الخالق -جل جلاله- يُفهم بناء على كمال صفاته وجلالها وجمالها، ولو لم يكن في كتابي إلا هذا السطر لكفى والله!.

وكلام البلغاء من الناس -مهما بلغ مجدهم- يُفهم على أساس صفاتهم البشرية. وأبلغ ما وصلنا من كلام قبل القرآن هو شعر ما قبل الإسلام، وأبلغه هو المعلقات وتسمى المذاهبات؛ وكأنها كتبت بالذهب لبلاغتها وجمالها. هذه المعلقات ستجد أن أغلب مضامينها تدور حول العاطفة، الطبيعة، المجد، الحرب،... إلخ، ولك أن تشق كل مضمون إلى عشرات المعاني، فالطبيعة مثلا وصفوا الأرض من سمائها وجبالها وأنهارها وأشجارها وهوائها وحيوانها، حتى حركة الخيل وصفوها بدقة عجيبة، ما تركوا شيئا في الطبيعة إلا ووصفوه بطريقة تنبئ عن امتزاجهم بها، وناجوا الطبيعة وحدثوها واستلهموا منها.

أما طريقة وصف القرآن للطبيعة فيختلف؛ الخالق سبحانه وتعالى حين يصف ليس كالمخلوق، وصف الخالق فيه عظمة ورهبة وجمال وشفاء وأسرار... إلخ. وأنا أدعوك ان تتذوق هذا بنفسك.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ  
وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ  
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا  
مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ  
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ سورة البقرة

بعد أن وصلت بفضل الله لهذا الاستنتاج وجدت كتابا هو كنز من كنوز البلاغة، وهو كتاب (المعجزة) للدكتور أحمد بسام ساعي، وأعتبره أنفـس وأفضل كتاب في التاريخ يُظهر إعجاز القرآن اللغوي، وقد أَلّفه في عشرين عاما أو يزيدا!.

بيّن فيه بالتفصيل المدهش اللغةَ الخاصة التي نزل بها القرآن، وهي اللغة القرآنية، وما أحدثته من صدمة لغوية عند العرب حين سمعوا القرآن أول مرة، وما هذه اللغة التي تختلف عن لغة العرب. أحضّك أن تقتني الكتاب وتحرص على قراءته؛ فهو من فرائد الدهر والعقول.

لقد اعتاد اللغويون أن يرددوا: (نزل القرآن بلغة العرب)، وهذا ليست صحيحا بإطلاق، هو نزل بنفس حروفهم وكلماتهم لكنه أحدث أسلوبا جديد في: التراكيب، والأساليب، والسياقات، والمعاني الجديدة، بل جاءت ألفاظ جديدة لا يعرفها العرب. وهنا لابد أن تضع الدراسات البلاغية يدها، وهو الذي يستحق أن يسمى: بلاغة القرآن، أما ما يوجد في أغلب كتب البلاغة من ذكر تعريف الفن البلاغي، ثم شاهد عليه من القرآن ثم من الشعر، فلا يُسمى بلاغة!، وهذا ما سبب نفور الطلاب من دراسة علم البلاغة.

البلاغة هي علم الجمال، علم الروح، العلم الذي يبني الذوق السليم ليس في اللغة فحسب، بل في كل مجالات الحياة، فمن اعتنى بجمال لغته غالبا ستجده جميلا في جوانب حياته، فشبيه الشيء منجذب إليه.



هذه الخطوة الثالثة في الطريق البلاغة، بعد الاتصال بالطبيعة، والتذوق البياني.

وأعني بالتمكّن اللغوي الذي يخدمك في البلاغة أن يكون الدارس للبلاغة لديه كفاية لغوية من كل علم في علوم اللغة العربية، وكلامي هنا ليس للمتخصصين في اللغة وإنما لكل متذوق للبلاغة ولكل راغب في فهم القرآن، فعليك أن تأخذ من كل فن طرفاً، والأهم من ذلك أن تعرف سرّ كل فن من فنون اللغة؛ فمعرفة الأسرار يختصر عليك الطريق ويوفّر لك العمر والجهد، وإذا كنت قد اطلعت على كتابي في النحو (التذوق النحوي) ففيه الكثير من الأسرار اللغوية التي تكشف لك هذا العلم وتأخذك هذه الأسرار إلى الطريق الميسرة.

من خلال تجربتي في دراسة البلاغة وتدريسها فإن النحو هو البوابة الكبرى للبلاغة، بشرط أن تدرس النحو بتذوق، أما دراسته في قواعد جافة بطريقة تقليدية فهي لا تغني شيئاً، بعد ذلك أكثر من القراءة في المعاجم اللغوية، ويكفيك منها (لسان العرب) لابن منظور، اقرأ فيه واطّلع، لتتسع معاني المفردات في ذهنك، وتوسع المعاني هو لب البلاغة، واطّلع في عالم الأدب شعراً ونثراً ليتوسع الخيال لديك، والخيال هو الذي يقوم عليه علم البيان.

اجعل طريق تعلمك محفوفاً بالاستماع، فليست الغاية الوصول للهدف، وإنما الاستمتاع أثناء الرحلة للهدف. قد تكتشف شيئاً لم يكتشفه غيرك، وقد تصل إلى طرق لم يصلها غيرك، اعقد النية وانطلق.

# مُقَدِّمَاتُ بَلَاغِيَّةٌ

هذه مقدمات كانت مقالات منفصلة، فضمامتها إلى الكتاب  
لتعم الفائدة.



## البلاغة الأولى

البلاغة كانت في بداية نشأتها صفةً تلازم الأديب، ولم تكن تدل على معنى اصطلاحى كما هو شائع الآن، وذلك لأن العرب قد طُبعوا على جزالة الألفاظ وفخامة الأساليب، وما ورد من ديوان الأدب العربي يؤكد ذلك، وعندما جاء الإسلام ومعه معجزته الخالدة القرآن الكريم تحولت البلاغة تحولاً عظيماً من بلاغة بشرية إلى بلاغة إلهية، فارتفعت إلى سقْف لا يُدرَك، وأتت بشيء لم يُعهَد، وهنا حصل ذهولٌ ذهني، وكأنَّ الزمنَ توقفَ ليعطيَ مساحةً لهؤلاء البلغاء أن يأخذوا أنفاسهم ويتفكروا، فتوقف الزمان والمكان عند بلاغة القرآن، وتوقف الكثير من الشعراء عن قول الشعر، فلم يُكتب شعراً إلا حين بدأ الشغب من جهلة قريش، وصاروا يعتدون على رسول الله، فكان الشعر حينها دفاعاً فقط، لذا كان يخلو من الصور البيانية العميقة عما كان في الشعر الجاهلي، ولا غرابة فهذه متطلبات المرحلة آنذاك. فالعرب في هذه الفترة لم يكن همهم الاستعراض الشعري كما كانوا في الجاهلية، إنما كان لرد الأذى، والسن بالسن.

الذهول الذي أصاب الناس بسبب بلاغة القرآن ما السر فيه؟ لماذا القرآن بالذات الذي فعل فيهم هذا؟ حين ترجع للشعر الجاهلي تجد أنه يهز فيك وجدانك، لن تجد فيه إلا الحب والفخر والمدح والهجاء والرتاء وكلها أمور وجدانية، ولا يكاد يعطيك فكراً أو تصوراً كاملاً للحياة إلا القليل، فهذا المعهود عندهم.

في هذه الفترة كان اليونان يمتلئ شعريهم بالفكر ويخلو من عاطفة الوجدان فجاء جافاً باهتاً، لكنه كان يفلسف الحياة وما بعدها.

أما بلاغة القرآن فقد خاطبت العقل وخاطبت الوجدان في آن واحد، وهذا لا يستطيع على وجه الكمال إلا من لدن الرب الإله فقط، وهنا يكون الكمال البلاغي، لاحظ التباين بين موقف كبار قريش وموقف الضعفاء من الغلمان والجواري، تجد أن الضعفاء كانوا يستسلمون لتأثير القرآن على

وجدانهم، فيتصرفون بفطرتهم وينساقون لسماعه وأسلم منهم الكثير، أما الكبار منهم والعتاة كانوا يتجاهلون تأثيره الوجداني لكنهم لم يستطيعوا تجاهل تأثيره العقلي والفكري؛ لذا كانوا هم الذين يجادلون رسول الله حول ما يؤمرون به أو ينهون عنه

هذا الأسلوب -وهو مخاطبة العقل والوجدان معا- تجده قليلا في بلاغة العرب، إذ هي غالبا تخاطب الوجدان، وإذا يمتد إلى بلاغة اليونان وفلاسفتها تجد أنها تخاطب العقل. جاءت البلاغة الإلهية وصنعت ما لم يقدر عليه البشر.



## ماهية البلاغة

تأمل تعريف البلاغة لغة: الوصول والانتهاء إلى الشيء يقال بلغ فلان مراده إذا انتهى إليه. قال تعالى: (ولما بلغ أشده) أي: وصل، ومبلغ الشيء: منتهاه. ولا كلام كثير في التعريف اللغوي فهو واضح جداً، نأتي إلى البلاغة اصطلاحاً، سأسردها لأدع فرصة لذهنك أن يتأملها: ننتبه لتعريف البلاغة وصاحب التعريف والعصر الذي فيه:

العصر العباسي: **ابن المقفع** 143 وهو من البلغاء وكتّاب الدواوين، وترجم الكثير من الآداب الأجنبية إلى العربية "البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سمعاً وخطباً، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة.

عرفها **الأمدي** المتوفى عام 370هـ بأنها: "إصابة المعنى وإدراك الغرض بألفاظ سهلة عذبة مستعملة، سليمة من التكلف، لا تبلغ الهذر الزائد على قدر الحاجة، ولا تنقص نقصاناً يقف دون الحاجة.

لقد عرفها **الرماني** 386 بقوله: "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ. يقول محمد أبو موسى: "وهذا التعريف للكلام البليغ أي الأدب، وليس تعريفاً للبلاغة التي هي مسائل وقواعد تعين على تذوق الكلام ويبحث أسرارها".

**أبو هلال العسكري** 395 البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه، كتمكنه في نفسه، مع صورة مقبولة، ومعرض حسن.

**الجرجاني** المتوفى عام (471هـ) بقوله: "البيان هو تأدية المعاني التي تقوم بالنفس تامة على وجه يكون أقرب إلى القبول، وأدعى إلى التأثير، في صورتها وأجراس كلمه، بعدوبة النطق وسهولة اللفظ والإلقاء والخفة على السمع.

**السكاكي** المتوفى عام 626هـ فقد عرفها بقوله: "هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه. مفتاح العلوم

القزويني المتوفى عام (739هـ) بأنها: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته.

عيسى إبراهيم السعدي، الشافي في البلاغة العربية: "البلاغة هي تأدية المعنى الجليل بعبارة صحيحة، لها في النفس أثر خلاب مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يُخاطبون".

لاهارب ناقد فرنسي ت 1803 "البلاغة هي التعبير الصحيح عن عاطفة حق".

سورين شاعر فرنسي ت 1781 "الفكرة الصائبة ثم الكلمة المناسبة".

لابروبير كاتب فرنسي ت 1696 "هي نعمة روحية تولينا السيطرة على النفوس".

هذه التعاريف تجمع أهم أركان البلاغة:

- 1- حسن اللفظ وصحته وهذا ما يقال عنه الفصاحة.
  - 2- أن يكون هذا الكلام مؤثرا في النفس والعقل.
  - 3- أن يطابق هذا الكلام الحال، سواء حال المتكلم أو المخاطب أو البيئة زمانا ومكانا.
- فكل تعريف نظر إلى البلاغة من زاوية، وأيسر ما يمكن أن تحفظه هو قول الزيات:  
هي ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم، من طريق الكتابة أو الكلام. ص/23  
هذا تعريف للبلاغة من حيث هي علمٌ، وليس تعريفا لبلاغة القرآن.



## الذوق والبلاغة

ما علاقة الذوق بالبلاغة؟

من يعرف البلاغة الفطرية سيعرف الذوق.

ذكرنا أن البلاغة كانت عند العرب سليقة وفطرة، متأصلة في نفوسهم، فهي ليست شيئاً غريباً، حتى العرب الذين لا يقرؤون ولا يكتبون وإنما هم مشغولون في حياتهم العامة أيضاً لديهم الحس الذوقي للكلام الراقي، ويبحثون عنه ويحرصون على سماعه، وظلت هذه سنة العرب حتى بعد عصر الإسلام الأول، ومجالس الشعر والأدب كانت معروفة، ظهر الجاحظ وابن قتيبة، وكانت البلاغة لديهم ذوقاً، ثم ازدادت اتساقاً على يد عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وبعده في فترة من التاريخ حدثت فجوة بين العرب ولغتهم خاصة ما يتعلق بالأدب، وسبب هذه الفجوة أمور كثيرة ذكرتها في كتابي الطريق إلى البلاغة، منها التزهيد في الأدب والشعر بحجة أنه مضيعة للوقت، أو يدعو للذليلة! ودخول غير العرب في الإسلام أو اختلاطهم بالعرب فدخل اللحن والعجمة، وقُفد الذوق في تطلّب الفن الأدبي! وهذا كان على مدار سنين، لذا ظهرت بعد هذه الفترة البلاغة المنطقية التي تعتمد على القواعد، ظهرت على يد السكاكي، وأراد من فعله تقريب البلاغة للناس وتيسيرها لهم بعد هجرهم لها وزهدهم فيها، فوضع هذه التقعيدات والتقسيمات، لكنه لم يهمل الذوق بل أكّد على أنه الأساس، لكنه جعل الباب هو القواعد أولاً، وفي وقته أصاب المتعلمين غرام بالتقعيد وولع به، فانصرفوا إلى شرح القواعد وتبسيطها ثم إلى الاختصارات والحواشي، وهنا وُضعت نقطة على تاريخ البلاغة، ووقف التاريخ، وصارت البلاغة صورة مكررة لما في كتاب السكاكي. وهكذا استمرت صورة العلم على هذا النمط، حتى عصرنا هذا يغلب على سمة العلم الجانب المنطقي بعيداً عن الجانب الذوقي والروحي. لكن بدأت دعوات للرجوع إلى الذوق.

في بداية دراستي البلاغية قلت جملة: (عبد القاهر تذوق والسكاكي تمنطق). لذا اخترت التذوق طريقاً لي ومنهجاً، وجعلت القواعد مجرد مفتاح لا أنشغل به كثيراً، فتحت به الباب ثم تركت المفتاح جانبا.

## عبد القاهر : الذوق والأريحية :

ويقول شيخنا / عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) : إن المعول في فهم النص على الذوق ، والإحساس الروحاني (المعنوي) ، وما يعرض في نفس السامع من الأريحية (القبول أو الراحة أو اللذة المعنوية) ، فإن لم يجدها أليس القول أو الشرح بمغن عنه شيئاً .

الجمال بين أهل الفكر والبلاغة  
د. بسري عبد الغني

## علوم البلاغة

أول ما يُبدأ في أغلب كتب البلاغة هو الكلام عن تعريف الفصاحة والبلاغة، وشروط الكلام البليغ والفصيح، وستجد أن الأمثلة مكررة في هذه الكتب، هذا المبحث برأبي تحصيل حاصل، أي هو نتيجة لدراسة البلاغة وفهمها، فمكان هذا الدرس هو آخر الكتب وليس أولها، فبعد أن يعرف الدارس أبواب البلاغة سينتج لديه تلقائياً معنى البلاغة والفصاحة وشروطهما، مع أن بعض علماء البلاغة لا يرى فرقا جوهريا بين البلاغة والفصاحة.

نبداً بفاتحة البلاغة وعلومها

### البلاغة ثلاثة علوم:

المعاني والبيان والبديع، وكلّ فنّ منها له باب إذا أتقنته تقيت البلاغة بكل ارتياح، بل وتبلغ بك السعادة بهذا العلم كل مبلغ؛ إذ كل باب هو علم بذاته، فمن حاز البلاغة حاز جُلَّ علوم اللغة بلا مبالغة وإليك التفصيل:

**أولاً: علم المعاني** "هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي والتي يطابق بها مقتضى الحال" هذا العلم يدرس (أحوال الإسناد (وتراكيب الكلام والأسرار التي تنطوي تحت كل تركيب، والسبب في اختيار هذا التركيب في هذا المقام.

والمقصود من أحوال الإسناد: الأحوال التي تعترض الجملة العربية من: تقديم وتأخير/ تعريف وتنكير/ الذكر والحذف / والوصل والإيجاز والإطناب...إلخ.

وكل هذه المسائل بابها الأعظم هو: علم النحو، إذ النحو "يبحث في أصول تكوين الجملة" وغايته أن "يحدد أساليب تكوين الجمل ومواضع الكلمات ووظيفتها فيها" لذا قام الدكتور السامرائي بشرح النحو من جهة المعاني ولم يقف على القواعد النحوية الظاهرية فقط، وسمى كتابه "معاني النحو" وهذا من فقهه وفقه الله، فمن أتقن علم النحو سهّل عليه علم المعاني، والصعوبة التي يجدها دارس علم المعاني أو حتى القارئ فيه مكنها ضعفه في علم النحو.

**ثانياً: علم البيان** "أصول وقواعد يُعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق متعدّدة وتراكيب متفاوتة: من الحقيقة والمجاز، والتشبيه والكناية".

فعلم البيان يدور حول الصور والأخيلة التي توجد في التشبيه والمجاز والكناية، يمكن القول أنه علم مكانه الخيال الخصب، وبابه الأعظم هو: علم الأدب شعراً ونثراً، فمن أكثر القراءة في كتب الأدب خَصُبَ خياله، وعرف مقاصد العرب من التشبيه وأنواعه، وفهم المجاز على حقيقته وتخلّص من الخلافات التي تدور حوله، واستقبل النصوص بوعي تام.

**ثالثاً: علم البديع** "هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام".

هو علم يتعلق بالتحسين والزخرفة لمعانٍ مقصودة، وهو شديد الصلة بالمفردة وما يتعلق بها من: معنى وجرس، وما يعتريها من تقلبات اشتقاقية وعلاقتها بما يشبهها أو يضادها... إلخ. وعليه فبابه الأعظم هو: علم المعاجم وفقه اللغة. فمن أتقنهما انقاد له علم البديع وتخلص من التكلفات البديعية التي يتكلفها بعض الكتّاب.

**المختصر:**

مفاتيح علوم البلاغة:

علم المعاني مفتاحه: النحو

علم البيان مفتاحه: الأدب

علم البديع مفتاحه: المعاجم وفقه اللغة

# المجاز

## كيف نفهم المجاز؟

هل يوجد مجاز في اللغة أم لا يوجد؟ كان هذا السؤال يفترض مساحة كبرى فيما مضى، لكن الآن طوى نفسه وودع الساحة؛ لأن السؤال نفسه خطأ، وعليه جاءت الإجابات الخاطئة في نظري، وعليه فهذا الخلاف قد كبرنا عليه أربعا 😊. إذا لم يسبق أن قرأت عن الخلاف في المجاز فلا داعي أن تقرأ؛ فالأمر استبان ووضح. ولي مع المجاز بشكل خاص قصة وتجربة.

والسؤال الصحيح الآن هو: ما المجاز؟

المجاز له صور كثيرة جدا منها:

• الكلمات في اللغة لها دلالة حسية وأخرى معنوية عقلية، تارة يغلب في الظهور المعنى الحسي، فيكون المعنى العقلي مجازا، وتارة يغلب المعنى العقلي فيكون المعنى الحسي مجازا، وتارة يستوي المعنيان، فبحسب الظاهر يكون هو الحقيقة وغيره المجاز، وبعض اللغويين يجعل الكل حقيقة، وبعضهم يجعل الكل مجازا!، وما أجمل الوسط والذوق في مثل هذه الأحوال.

مثال: الباب، دلالته الحسية: هو الباب الذي نراه، ودلالته المعنوية كما نقرأ في الكتب: باب كذا وكذا.

الحب، دلالته المعنوية هي مشاعر القلب، ودلالته الحسية كما يطلق بعض الناس اليوم على كثير من الحسيات أنها هي الحب، فيقولون: المال هو الحب، الطعام هو الحب، السفر هو الحب... والسبب في هذا هو تطور اللغة وتطور دلالاتها، فما كان مجازا في السابق لم يعد مجازا الآن.

• الأسماء في اللغة خاصة بمسمياتها، مثل اسم الشمس خاص بها، اسم القمر خاص به، فإذا استعمل هذا الاسم لغير صاحبه سمي مجازا، وهو باب الاستعارة المشهور. مثال: رأيت قمرا يزهو بين الناس، فلا أحد يشك مطلقا أن المقصود هنا شخص جميل، ولا يطرأ في الذهن القمر الحقيقي.

- الأساليب في اللغة لها دلالتها المباشرة التي تعرف من دلالة الكلمات نفسها، فإذا صاحب الأسلوب حالاً من الأحوال الذي يصرف الدلالة المباشرة إلى غيرها سماه البلاغيون مجازاً. مثال: أساليب الإنشاء والخبر حين تخرج عن مقتضاها الظاهر، مثال: حين تقول لشخص عبث بأشيائك وقد أغضبك هذا تقول: حسنا عبث كما شئت!، هنا سيفهم أنه تهديد وليس أمراً بالعبث، مع أن الأسلوب هو أسلوب أمر.
- تطور دلالة الكلمة عبر الزمن يسمى مجازاً. خاصة فيما يتعلق بآداب الناس وعاداتهم، ويدخل هنا باب الكناية، وهو أسرع باب في اللغة تطوراً وتغيراً؛ لتغير عادات الناس وتطورها. مثال: تأبط شراً/ عيناه تقذف شراً/ انتفخت أوداجه... كلها كناية عن ينوي شراً.
- كلام الخالق سبحانه حين يخلع على الجمادات صفات الأحياء التي نعرفها مثل، وحين يخاطبها كما يخاطبنا هنا لا نقول مجازاً؛ لأن الخالق تعالى هو أعلم بمن خلق، ومخلوقاته خاضعة له، وهو القادر على منحها من الصفات ما يريد، كخطابه للسموات والأرض، وإخباره بأن مخلوقاته تسبح وتسجد و... إلخ. هذه حقيقة لا مرأى في ذلك بكيفية لا نعلمها. بينما المخلوق حين يخاطب الجمادات كما يفعل الشعراء في خطابهم لليل والقمر والنجوم و... هم يتخيلون أنها تشعر بهم وتخاطبهم، فهم لا يتجاوزون عتبة الخيال، وشتان بين بين.
- بلغ التوسع في اللغة عند العرب أنهم ينسبون شيئاً إلى شيء لأدنى علاقة بينهما أو لأي سبب، أو يسمون الشيء بغير اسمه لاعتبارات لا حصر لها، وهي ما يُدكر في المجاز العقلي والمجاز المرسل، وبعض اللغويين لا يفرق بين النوعين لأن كليهما تجوّز وتوسع في اللغة. وكثير منها صار المجاز فيها حقيقة. فيطلقون على الشخص المريض أنه سليم تفاؤلاً، ويطلقون على الصحراء مفازة رغبة في الفوز باجتيازها، ويطلقون على من قارب البلوغ رجلاً أو امرأة باعتبار ما سيكون وهكذا.
- المجاز ليس قسيماً للحقيقة بمعنى أنه عكسها ومضاد لها، وإنما هو يظهر الحقيقة في ثوب قشيب، في صورة بلاغية؛ لتؤثر ويحصل المقصود من الكلام، فهو مقوٍ للحقيقة، هو حقيقة وزيادة.

- المجاز لدى أهل أصول الفقه يختلف عن المجاز لدى الأدباء والبلغاء، فالأصوليون يبحثون المجاز المتعلق بعلم المعاني لأنهم يبحثون في دلالات الألفاظ لاستخراج الأحكام، بينما الأدباء يكثر لديهم المجاز المتعلق بعلم البيان.

## علمتني البلاغة في الحياة العامة

دراسة البلاغة في الأصل هي لفهم الكتاب والسنة، وكلام البلغاء، بفهم أسرار التركيب، وما ينطوي عليه من معان عظيمة في ألفاظ قليلة.

وقد لاحظت من نفسي حين درست البلاغة والنقد أيضا أنني اكتسبت فوائد جمة خارجة عن الدرس البلاغي، هذه الفوائد متعلقة بالحياة العامة التي نعيشها، واتصالنا بالناس، والتعامل معهم، وأحسب أن هذا مرتبط بشخصية الإنسان، من حيث ذوقه و طبعه؛ إذ قد يدرس شخص البلاغة ولا يستفيد منها في حياته العامة.

سأذكرها في نقاط، وكنت قد غرّدت بها قديما في حسابي:

- 1- تعلمك متى يحسن الكلام ومتى يحسن السكوت.
  - 2- تفيدك أثناء حديثك باختيار اللفظة المناسبة للموقف وللشخص وللحال عموما.
  - 3- تشعر أن أخلاقك ارتقت وسلوكك تهذب أكثر وأخال أن هذا يرجع لسببين الأول: أن البلاغة من علوم العربية ودراسة العربية ترقق النفس غالبا. الثاني: أن البلاغة تتعامل مع القرآن والسنة، وهذا واضح فيه التأثير.
  - 4- تتكون لديك تدريجيا ملكة في فهم شخصيات من حولك، من خلال أسلوبهم في الكلام والمفردات التي تتكرر لديهم؛ لأن الإنسان يتكلم وفق حالته تلقائيا؛ فاللغة فطرة حتى لو كانت عامية، فنحن نجد في أنفسنا أننا نقدم الفعل تارة، ونقدم الفاعل تارة دون أن نقصد ذلك، إنما فطرة نطقنا هذا، والسبب الحالة والموقف الذي نحن فيه.
  - 5- أن بلاغة كلام الخالق لم يصل البلاغيون إلى سقف أسرارها، فالبلاغة علم لم ينضج بعد؛ فهو يحتاج المزيد من الدراسات.
- آفة البلاغة تقييدها بالمنطق، وتقديمها للطالب في قواعد جافة تقيّد المعنى.

- البلاغة علم حيّ؛ لأنه متصل بالقرآن والسنة، ونطبق كثيرا من أساليبها في (عاميتنا) لكن تدريسها في قواعد جافة أو هن هذا العلم، وزهد الكثير فيه.
- دراسة البلاغة تحتاج سعة أفق على سعة اللغة العربية وأساليبها، وإلمامًا بدلالات اللفظ قديما وحديثا، مع اعتبار الحال والسياق.
- من المهم عند تدريس البلاغة أن يُبنى الذوق البياني لدى المتلقي، وتغذيته بالنصوص البيانية قرآنا وسنة وشعرا قبل الإبحار في القواعد البلاغية.
- بعض القواعد البلاغية تتغير بتغير الأحوال؛ فما كان مجازا باعتبار ما صار حقيقة باعتبار آخر، وما كان كنايةً عند قوم قد يكون صراحة عند آخرين.
- دراسة فقه اللغة تمد البلاغي بمعارف حول دلالة الألفاظ وتغيّرها عبر الزمن؛ فإذا حدّق ذلك فهم الكثير من الخلاف حول المجاز.
- لا بد من فكّ أسر المجاز في طريقة تدريسه من قيود التعريف المنطقي؛ فالمجاز مرتبط بالتذوق والخيال، وهما متغيّران مكانا وزمانا.
- وأنا أقرأ بعض صور المجاز أوقن أنه لوّن من ألوان الحقيقة وليس مجازا، وبعبارة أخرى: المجاز يضيف على الحقيقة حقيقةً أخرى.
- في دراسة البلاغة وتدريسها من الأفضل في التطبيق الرجوع إلى التفاسير البلاغية وعدم الاكتفاء بأمثلة الكتب المعروفة المكرورة. جربت واستفدت كثيرا.
- ابن عاشور في تفسيره البلاغي التحرير والتنوير حلّق بالبلاغة إلى أعلى. يدهشني باستنباطه، وينعشني بأسلوبه، رحمه الله.
- من المسائل المهمة جدا في دراسة بلاغة القرآن عدم قياس مخاطبة الله للمخلوقات على ما ورد عند العرب من مخاطبتها لها، وهنا يكمن سر البلاغة.
- فمخاطبته تعالى للسماوات والأرض، ونسبته الأفعال لها ولغيرها حقيقة وليس مجرد تشبيه لها بالأحياء، وفي هذا تنطوي أسرار كثيرة، تظهر للمتأمل، وقرأت الكثير منها في الكتب المترجمة.

• وهنا تأتي البلاغة توضح البون بين كلام الخالق وكلام المخلوق، وللقارئ أن يتأمل الآيات التي خاطب الله بها مخلوقاته ويقارنها بما ورد عن العرب:

تأمل: {فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين}

وقول امرئ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ / بصبح وما الإصباح منك بأمثل  
تجد في الآية عظمة وقوة وتدبيراً وقهراً للمخلوقات، بينما تجد في البيت الشعري روحاً ضعيفة أرهقتها الآلام وأسهرتها الأمنيات.

• درست في كلية اللغة بلاغة أساطين الشعر العربي، فلما قارنتها ببلاغة القرآن فكأن الأمر {ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا}.

• البلاغة هي علمٌ روح الإنسان؛ فهي تنبع من أحوال النفس، ثم تعبر بما يؤثر في النفس، وتبقى المعاني تتوالد. أما البلاغة القرآنية فشيء آخر آخر.

• علمتني البلاغة: أن أتلّمس أحوال المتكلم أو الكاتب؛ حتى أفهم ما قاله، لم قاله؟ وأن أقرأ ما خلف كلماته؛ لأن هذه الخلفية هي الدافعة للكلام.

• علمتني البلاغة: أن لا أتكلم أو أكتب إلا وقد استقرأت حال المتلقي وما قد يجول بذهنه حين يقرأ أو يسمع. حتى في حياتي العامة، وهذا جعلني في دعة.

• علمتني البلاغة: أن المعاني الجليلة التي تنبعث من أعماق القلب لا تستحق إلا ألفاظاً مثلها جلالاً وشفراً؛ فتصافح القلوب قبل الأسماع والأنظار.

• علمتني البلاغة: أن المعاني التي يواربها اللفظ أكثر من التي يُظهرها؛ فكلما نَقَّبَ بفكره فاضت المعاني، ورأيت حُسناً غير الذي تعرفه.

## تدريسي البلاغة

ختاما فكل ما في الكتاب هو ثمرة دراستي وتدريسي البلاغة، خاصة في مرحلة التدريس، عندما بدأت أدرس البلاغة وجدت صعوبة في إيصال المعنى للطالبات، وكنت أرى حيرة في وجوههن، وأسئلة كثيرة تدور حول عدم الفهم أو عدم الإحساس بالمعنى المسطور في الكتب المقررة، الكثير منهن قال لي: إن البلاغة علم فاتن وجميل، لكن لماذا لا نجد اللذة في دراسته؟ لماذا لا نجد المتعة فيه؟!.

من هذا كان قراري أن أغير طريقة الدرس البلاغة، وأن لا نكتفي بما هو مقرر في الكتاب المدرس أو غيره، وإنما نبحت نحن بأرواحنا، ونتذوق المعاني بأنفسنا.  
من الخطوات التي قمت بها:

1- شرح الدرس المقرر، ثم الانتقال إلى القرآن المجيد والبحث فيه عما درسناه، من خلال تحضير مسبق لي.

2- القراءة في كتاب مساند للمقرر، يحوي نصوصا بليغة عن النفس والطبيعة والقيم، نقرأ سويا ونتذوق، ونقول آراءنا بكل أريحية.

3- ربط الأسلوب البلاغي بالحياة اليومية، حيث أدركت مع طالباتي أن أساليب البلاغة مثل أساليب النحو، هي موجودة في لغتنا وحياتنا اليومية، فنحن نستعمل الاستفهام للتهديد والتعجب، ونستعمل الأمر والنهي للاسترحام والطلب والتخويف والترغيب، تماما كما في اللغة الفصيحة، وهذه النقطة كانت محورية جدا للطالبات، ومنها وضعن أيديهن على فهم البلاغة في الكلام الفصيح.

4- التدرّب على كتابة نصوص أدبية، مستعملا فيها الأساليب البلاغية.

5- أن تختار كل طالبة أي كلام أدبي أعجبها، وتأتي به في الدرس وتحلله بلاغيا استنادا على تذوقها.

الحقيقة كانت مرحلة تدريس البلاغة مثيرة للغاية، حسبي أني خرجت بهذا الكتاب السهل الواضح، الذي أرجو أن يكون إضافة مهمة لطالب علم البلاغة.

## وقد كان من ثمرات هذه الطريقة:

- زوال الحاجز الشعوري بين الطالبات وبين البلاغة.
- رفع سقف الذوق لدى الطالبات.
- الانتباه إلى تأثير الكلام بأساليبه المختلفة على أنفسنا وغيرنا.
- زيادة الرغبة في تدبر القرآن والمتعة في ذلك.
- انصراف الطالبة من الاهتمام بالدرجة إلى الاهتمام بالفائدة.
- تحسن الأداء الكتابي، وارتفاع مستوى اللغة الشاعرة.

## قصة اختبار بلاغة

هذه قصة اختبار للبلاغة كتبها عام 2014 شهر نوفمبر، وكانت تجربة مختلفة وغير مألوفة لمادة كالبلاغة، كتبها حينذاك ونشرتها في أحد وسائل التواصل، أنقلها في كتابي كما هي بحروفها ومشاعرها.

- قمت بتجربة جديدة في الاختبار النصفي للبلاغة، وهي الاختبار مع فتح الكتاب، وإن كانت الفكرة ليست جديدة لكني لأول مرة أقوم بها. وأقول لأخواتي الطالبات عن هذه التجربة في البلاغة بالذات:
  - الخروج عن النمط السائد في طريقة الاختبار وكسر الروتين لما يحدثه في النفس من تغيير، وتحفيزه، والشعور بنشوة مختلفة، آمل أن تكون أصابت في أنفسكن مرمئاً حسناً.
  - الاختبارات التقليدية تحصر عملية الإبداع لدى الطالب، وتمنعه من إبداء رأيه الذي يعتلج في صدره خاصة في المواد التي فيها مجال للإبداع كالبلاغة.
  - لاحظت الجهد الذي بذلته الطالبات في محاولة تذوق الأبيات الشعرية، وتلمس مخابئ الشاعر ومعرفة ما اختلج في قلبه، فخرجت الطالبات بمعانٍ لم تكن -حقاً- في الحسبان، بغض النظر هل كانت من مقاصد الشاعر أم لا.
  - إن الصعوبة التي واجهتهن في التعبير هي المشكلة الكبرى لدى أكثر الطلاب، والسبب هو الفقر اللغوي الذي بسط ذراعيه على الشفاه، فتجد أهدنا تتصارع المشاعر في قلبه ويعجز أن يبيدها في معانٍ بينة بألفاظ سهلة. وهذا كان غرضي الأكبر من الاختبار؛ أن تضع الطالبة يدها على المشكلة.
  - لا بد أن يعي الطلاب عموماً أن الدرلة الحسية التي تكتب في الشهادة ليست بشيء، فلا تدل على علم ولا جهل، إنما الدرلة الحقيقة هي ما تستفيده حقاً من المادة التي تدرسها، وماذا أثرت في عقلك وسلوكك وألفاظك.
  - كلمة أخيرة عن مادة البلاغة:  
هي مادة تتصل بالقرآن والسنة بالدرلة الأولى، وحتى تتم دراستها بشكل صحيح لا بد مما يلي:

- إتقان الأبواب الرئيسة في علم النحو؛ لأن البلاغة وخاصة علم المعاني منها مبني على النحو.
  - قبل دراسة البلاغة لابد أن يتذوق الطالب أساليب العرب في الكلام شعرا ونثرا، حتى يصل لدرجة مرضية يسهل معها فهمه للبلاغة.
- وختاما أقول لكنّ: سعيدة بأدائكنّ وما كنتُ أراه على محياكنّ أثناء الاختبار من مشاعر لاحت على الوجوه، ما بين حيرة، وتفكير عميق، وابتسامة تعجبية... إلخ وأهدي لكنّ هذه الطرفة التي وجدتها صدفة، وهي تبين المقصد من دراسة البلاغة باختصار.

قصة طريفة حدثت أثناء فترة الامتحانات لأحد معلمي اللغة العربية، واسمه (بشير)، فبعد انتهاء امتحان مادة البلاغة، قام الأستاذ بشير بتصحيح أوراق الإجابة، وكعادته ما أن يمسك الورقة حتى يبدأ بتصحيح إجابة السؤال الأول ومن ثم السؤال الثاني وهكذا ..

وفي بعض الأحيان يلحظ أن بعض الطلاب يترك سؤالاً أو سؤالين بدون إجابة، وهو أمر معتاد، إلا أن الذي أثار استغرابه وأبدى دهشته ورقة إجابة لأحد الطلاب، تركها خالية، ولم يجب فيها على أي سؤال! ووضع بدل الإجابة القصيدة التالية التي نظمها خلال فترة الامتحان

أبشير قل لي ما العمل واليأس قد غلب الأمل  
 قيل امتحان بلاغةٍ فحسبته حان الأجل  
 وفزعت من صوت المراقب إن تنح أو سعل  
 وغدا يجول صفوفنا ويصول صولات البطل  
 أبشير مهلا يا أخي ما كل مسألة تحل  
 فمن البلاغة نافعٌ ومن البلاغة ما قتل  
 قد كنت أبلد طالبٍ وأنا وربي لم أزل  
 فإذا أتتك إجابتي فيها السؤال بدون حل  
 دعها و صحح غيرها والصفـر ضعه على عجل.

فما كان من الأستاذ بشير سوى إعطائه درجة النجاح في مادة البلاغة؛ لأن الهدف الذي يسعى لتحقيقه من خلال تدريسه لمادة البلاغة متوفر في هذا الطالب، الذي استطاع نظم هذه القصيدة الطريفة والبديعة.

والحمد لله على التمام والقبول

نجلدء الكشيري

## الدليل

2	المقدمة
6	رحلتي مع البلاغة
10	العلاقة بين الطبيعة والنفس والبلاغة
13	التذوق البياني
17	الموقف من الأدب
21	البيان القرآني
23	تجربتي في اكتشاف سر القرآن
28	التمكن اللغوي
29	مقدمات بلاغية
30	البلاغة الأولى
32	ماهية البلاغة
34	التذوق والبلاغة
36	علوم البلاغة
38	كيف نفهم المجاز؟
41	علمتني البلاغة في الحياة
44	تدريسي البلاغة
46	قصة اختبار بلاغة